بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الجمعة في المسجد النبوي بالمدينة النبوية

لفضيلة الشيخ : عبدالباري الثبيتي

بتاريخ : ١٧- ٩-١٤٢٣هـ

والتي تحدث فيها فضيلته عن : مدرسة الليل

الحمد لله، الحمد الذي أودع شهر رمضان مزيد فضل وأجر أحمده سبحانه وأشكره أن خصنا بهذه العشر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الخلق والأمر وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، شدّ مئزره طلباً لليلة القدر، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه كلما أضاء قمر وانشق فجر.

أما بعد: فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُـوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

عباد الله، قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝ نِّصْفَهُ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءانَ تَرْتِيلاً ۝ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل:١-٥].

خطابٌ للرسول ﷺ كي يُعدَّ للقول العظيم والرسالة الثقيلة، ومحضنُ الإعداد مدرسةُ الليل التي تفتح القلب، وتوثِّق الصلة بالله، وتشرق بالنور.

كان النبي ﷺ أعلم الناس [بالله] وأتقاكم له، يخلو ذاكرا ربَّه، كلما سنحت له فرصةٌ يتعبَّد لخالقه، فإذا جاء الليل وأرخى سدوله توجَّه إلى معبوده عز وجل، ينادي، يدعو، يتضرع بين يديه قائماً وقاعداً وساجداً، حتى يكاد الليل أن ينجلي وهو لم يشعر بطول القيام، وكيف له أن يشعر بذلك، وهو خالٍ بالله تعالى، خالٍ بملك الملوك، مستأنسٌ بمناجاته، متلذِّذ بعبادته، مقبلٌ عليه بقلبه وجسده، ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَـا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٦، ١٧]، قيل للحسن البصري رحمه الله: ما بال المتهجّدين من أحسن الناس وجوها؟! قال: "لأنهم خلوا بالرحمن ففاض عليهم من نوره".

إن قيام الليل -عباد الله- عبادةٌ تصل القلب بالله، وتجعله قادراً على مقاومة مغريات الحياة، وعلى مجاهدة النفس في وقت هدأت فيه الأصوات، ونامت فيه العيون، ولذا كان قيام الليل من مقاييس العزيمة الصادقة، وسمات النفوس الكبيرة، قال تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلأَسْحَـارِ هُمْ يَسْـتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٦، ١٧].

ما أكثر الفوائد التي يجنيها الفرد من قيام الليل، لتربية ذاته وصلاح حاله، ومن أهمِّ الثمار تنميةُ وازع الإخلاص، تحقيق المتابعة بالاقتداء بنبينا محمد ﷺ الذي يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه. ومن تدبر

القرآن أثناء هجوع الناس أحسَّ بتقصيره، وندم على تفريطه، ومن خشع في القرآن والصلاة سالت منه عبرات الندم والتوبة، وإذا ذكر الله خالياً ففاضت عيناه حشره رب العزة والجلال في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، ولا عفوَ إلا عفوه.

عباد الله، للذكر في صلاة الليل حلاوته، وللصلاة في الليل خشوعُها، إنها لتسكب في القلب أنساً وراحة ونورا، ولذا يقول أحد السلف: "أهلُ الليل في ليلهم ألذُّ من أهل اللهو في لهوهم"، يقول الحسن البصري رحمه الله عن سلف الأمة: "لقد صحبتُ أقواماً يبيتون لربهم سجداً وقياماً، يقومون هذا الليل على أطرافهم، تسيل دموعهم على خدُودهم، فمرة رُكعاً، ومرةً سجَّداً، يناجون ربَّهم في فكاك رقابهم، لم يملّوا طول السهر لِما خالط قلوبهم من حسن الرجاء، فأصبح القوم مما أصابوا من النصب لله في أبدانهم فرحين، وبما يَأملون من حسن ثوابهم مستبشرين، فرحم الله امرأ نافسهم، ولم يرض لنفسه من نفسه بالتقصير في أمره واليسير من فعله، فإن الدنيا عن أهلها منقطعة، والأعمال على أهلها مردودة" انتهى كلامه رحمه الله.

عباد الله، قيامُ الليل يورثُ القلبَ رقةً ونوراً، قال عطاء الخرساني: "كان يقال: قيام الليل محياة للبدن، ونور في القلب، وضياء في البصر، وقوة في الجوارح، وإن الرجل إذا قام من الليل متهجداً أصبح فرحاً يجد لذلك فرحاً في قلبه، وإذا غلبته عيناه فنام عن حزبه أصبح حزيناً منكسرَ القلب، كأنه قد فقد شيئاً، وقد فقد أعظم الأمور له نفعاً" انتهى كلامه.

أخي المسلم، ربُّك يعجب ممّن يقوم الليل، قال رسول الله ﷺ: ((عجب ربنا عز وجل من رجلين: رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين أهله وحِبِّه إلى صلاته، فيقول ربنا: أيا ملائكتي، انظروا إلى عبدي، ثار من فراشه ووطائه ومن بين حِبّه وأهله إلى صلاته، رغبةً فيما عندي وشفقةً مما عندي)) أخرجه أحمد وأبو داود من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. فيا له من عمل جليل، قيامُ الليل يعجب ربُّك من رجاله.

من ابتغى الشرف والرفعة فليداوم على قيام الليل لقوله عليه الصلاة والسلام: ((شرف المؤمن قيامه بالليل)).

قيام الليل دأب الصالحين، قربةٌ إلى الله تعالى، منهاة عن الإثم، تكفير للسيئات، مطردة للداء عن الجسد، كما ثبت ذلك من حديث المصطفى ﷺ.

قيام الليل سببُ رفع الدرجات، وبابٌ عظيم من أبواب الخير، قال ﷺ: ((ألا أدلك على أبواب الخير؟! الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل)) أخرجه أحمد وابن ماجه والترمذي.

المسلم حين يتسلل من فراشه في ظلمة الليل البهيم، ويتوضأ بالماء البارد، ثم يقف بين يدي ربه يناجيه، ويدعوه في الصلاة، فإن الرب تبارك وتعالى يذكره، ويفاخر ملائكته، يسمع ابتهاله واستغفاره، يسمع تسبيحه وتمجيده في وقت يهجع الناس وينامون، وربّ الناس وخالقهم لا يغفل ولا ينام، يقول الله تعالى: هل من تائب فأتوب عليه.

إن ربنا ينزل إلى السماء الدنيا كلَّ ليلة حين يبقى ثلث الليل فيجيب دعوة الداعي، ويعطي السائلَ سؤله، ويغفر ذنبَه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: ((ينزل الله إلى السماء الدنيا

كلَّ ليلة حين يقضي ثلث الليل الأول، فيقول: أنا الملك، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له، من ذا الذي يسألني فأعطيه، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له، فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر)) متفق عليه، وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ((إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك كلَّ ليلة)) أخرجه مسلم، وذكر النبي ﷺ الجنة فقال: ((إن في الجنة غرفةً يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها))، فقال أبو موسى الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟ قال: ((لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وباتَ لله قائماً والناس نيام)) أخرجه أحمد.

قال الفضيل بن عياض: "إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم قد كثرت خطيئتك"، وقال رجل للحسن البصري: إني أبيت معافىً وأحبُّ قيامَ الليل وأعدّ طهوري، فما بالي لا أقوم؟! فقال: "قيَّدتك ذنوبك".

وإذا لم يكن لك حظّ من الليل فكن كما قال بعض السلف: "إن لم يكن لك حظّ من الليل فلا تعصِ ربك في النهار"، عن سهل بن سعد رضي الله عنهما قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من أحببت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، ثم قال: يا محمد، شرف المؤمن قيام الليل، وعزُّه استغناؤه عن الناس.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي منَّ على العباد بالطاعات، أحمده سبحانه وأشكره على المكرمات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله البريات، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله الدال على الخيرات، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه.

أما بعد: فأوصيكم ونفسي بتقوى الله.

عباد الله، رمضان فرصة سانحة لنتلقَّى درساً بليغاً يجعلنا نتهيأ لقيام الليل، ولنعدّ أنفسنا لمدرسة الليل في رمضان وغيره من الشهور، لا سيما وأن عشر رمضان الأخيرة قد أقبلت، فيها خيراتٌ كثيرة، وفضائل مشهودة، فيها ليلة خير من ألف شهر، من قامها إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ويا له من أجر عظيم وفضل كريم، ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦].

إخوة الإسلام، هذه الليالي أوقاتُ إجابة الدعوات، وإعتاق الرقاب المثقلات، هذه أوقات يُتبرَّع فيها بين يدي إله الأرض والسموات، والله عز وجل يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠].

إن من الحرمان والغفلة أن يتسلَّط الشيطان ليصرف البعضَ عن الذكر والعبادة والقيام في أعظم مواسم الخير والرحمة والفضل، وليكن لنا رسولنا ﷺ أسوةً حسنة، تقول عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شدَّ مئزره، وأحيى ليله، وأيقظ أهله. كان الرسول ﷺ يشد مئزره كناية عن الجدِّ والاجتهاد، ومن جدّ واجتهد في طلب أمر ضحّى من أجله، وفي سبيله استسهل الصعب، وتلذذ بأي مشقة

في الدرب، يتقلب في أنواع القربات والطاعات ليلاً ونهارا، يومه كله عبادة، وجوارحه في طاعة، تـراه قائماً، فإذا فرغ أمسك القرآن بيده تالياً، ثم لهج لسانه بالذكر والاستغفار مردِّداً، ثم رفع أكـفَّ الضـراعة سائلاً، قلبُه خاشع، لسانه ذاكر، عينه باكية، جوارحه خاضعة، قد شغِل عن جميع الناس بطاعة إله الناس.

كل ذلك -عباد الله- كان يفعله رسول الله ﷺ طلباً ليلة القدر التي أنزل الله فيها سورة تتلـى إلـى يـوم القيامة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۞ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۞ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۞ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر:١-٥].

ألا وصلوا -عباد الله- على رسول الهدى، فقد أمركم الله بذلك في كتابه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّـهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك محمد، وارض اللهم عن الخلفاء الأربعة الراشدين...